الفصل الثالث

تجديد الخطاب الديني وتصحيح صورة الإسلام لدي الآخر (الغربي)

الفصل الثالث

تجديد الخطاب الديني وتصحيح صورة الإسلام لدي الآخر (الغربي)

مدخل

يُعد الخطاب الديني من أكثر الخطابات العديدة التي يشتمل عليها الخطاب الفكري المعاصر، و إن كان يمثل أهم هذه الخطابات وأكثرها تأثيراً في المجتمع؛ نظرًا لما يمثله الدين من قيمة عظمى داخل المجتمعات الإسلامية، وما يرتبط بموضوعاته من قدسية يمنحها له الدين الذي يُشّكل محورًا أساسيًا في تشكيل ملامح العقلية العربية، وتكوين الشخصية القومية في العالم العربي ومصر على حد سواء. كما أكدت الدراسات العلمية أن الخطاب الديني أقدر على تغيير الاتجاهات وتعديل السلوك، و إثراء الحياة أكثر من الخطابات الأخرى كالخطاب الإعلامي، أو التعليمي، أو الثقافي.. أو غيرها[1].

ونظرًا لهذا التأثير الهام للخطاب الديني وتجديده، جاءت أهمية هذا

(1) محي الدين عبد الحليم: الخطاب الديني وعناصر نجاح الاتصال الدعوى، في كتاب تجديد الخطاب الديني لماذا وكيف، سلسلة قضايا إسلامية، العدد 84، القاهرة، مطابع وزارة الأوقاف، 2002، ص109.

الموضـوع لتكون فكرته الأساسـية: توضيـح ما هو هذا الخطـاب وحدود التجديد فيه في تراثنا الإسـلامي، و إبراز أهم ملامح الأزمة التي تواجه مثل هـذا التجديد، وما دور الخطـاب الديني الجديد في تصحيح صورة الإسـلام لـدى الآخر (الغربي). وبوجـه عام يعرف الخطاب الديني في هذه الدراسـة بأنه:»الأقـوال والنصـوص المكتوبة التي تصـدر عن المؤسسـة الدينية، أو عـن رجال الدين، أو التي تصدر عن موقـف أيديولوجي ذي صبغة دينية أو عقائديـة، والذي يعبر عن وجهة نظر محددة إزاء قضايا دينية أو دنيو ية، أو الذي يدافع عن عقيدة معينة، و يعمل على نشر هذه العقيدة.[1]

لكن بدأت فكرة تجديـد الخطاب الديني تنتشر في الآونة الأخيرة انطلاقًا مـن رؤية تـرى أنه قد حـان الآوان لإعـادة النظـر في المفاهيـم، والقضايا والموضوعـات الدينيـة المطروحـة على سـاحة الجـدل الفكري والسـياسي والتعليمـي والثقافي وغيرها، وذلك من أجل اسـتخلاص رؤية جديدة تخرج بأمة الإسلام من كبوتها وتعيد لها توازنها. ونعني بمفهوم تجديد الخطاب الديني هنا العودة للأصول الصحيحة للإسـلام بعيدًا عن البدع والخرافات، وقراءة جديدة للمفاهيم والقضايـا والموضوعات الدينية المطروحة؛ وفقًا لمتطلبات المجتمعات الإنسـانية المعاصرة والبيئات المختلفـة وروح العصر، ومواكبة التجربـة التاريخيـة التـي تخوضهـا المجتمعات الإسـلامية منـذ اصطدامها بالحداثـة الأوروبيـة مواكبـة فعالـة تنتقـل من التعبـير عن هـذه التجربة الغربيـة إلى التنظير لها وتوجيهها نحـو آفاق التجديد والمعاصرة. ووفقًا لهذا

(1) محي الدين عبد الحليم: الخطاب الديني وعناصر نجاح الاتصال الدعوى، في كتاب تجديد الخطاب الديني لماذا وكيف، سلسلة قضايا إسلامية، العدد 84، القاهرة، مطابع وزارة الأوقاف، 2002، ص109.

التعريف، فقد احتلت قضية التجديد مكانًا محورياً في الفكر الإسلامي، بل يعد التجديد مطلبًا ذاتيًا في الإسلام، وليس من قبيل المبالغة القول بأن تجديد الفكر بمعنى العودة لمنابعه الصافية ممثلة في أصول الشريعة، والكتاب والسنة بعيدًا عن الاختلافات والتحزب والأهواء وتسفيه الآخر وتمجيد الذات قضية مركزية منذ ظهور الإسلام. وقد أكد الرسول ﷺ، على هذا الأمر في حديث صحيح يقول فيه: «إن الله يرسل على رأس مئة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وهذه القضية نوقشت من قبل العلماء المسلمين منذ القدم، فتناولها جلال الدين السيوطي في كتابه «التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة»، كتاب المراغي الجرجاوي «بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين» وغيرها تؤكد على أن المجدد هو الذي يجدد الدين في نفوس الناس بعد أن تراكمت فيها تصورات خاطئة، ومغلوطة عن هذا الدين.

ولذا فكما أكد شيخ الأزهر «أحمد الطيب» أن التأمل في طبيعة رسالة الإسلام يبرهن على أن مسألة التجديد إن لم تكن هي والإسلام وجهان لعملة واحدة فإنها على الأقل إحدى مقوماته الذاتية، فإذا تحققت تحقق الإسلام نظامًا فاعلاً في المجتمع، وإن تجمدت وانسحب عن مسرح الحياة واختزل في طقوس تؤدى في المساجد أو المقابر، وتمارس على استحياء في بعض المناسبات، فهذا التأمل يؤكد أن تاريخ الإسلام - في أزهى عصوره - يشهد على هذه العلاقة التي لا تنفصم بين التجديد وحيوية الإسلام.[1]

ومن هنا يأتي الخطاب القرآني موجهًا في الأساس إلى العقل والدعوة إلى

(1) أحمد الطيب: ضرورة التجديد، مؤتمر التجديد في الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 2002، ص ص41 - 43.

التفكير والتدبر والتأمل والنظر والاعتبار واستنباط العبر وقراءة ما في النفس الإنسانية، وما في كتاب الكون الفسيح، وذلك على اعتبار أن العقل ملكه ونعمه من الله تتكامل مع النص القرآني، فيحدث في اجتماعهما نور العقل مع نور الوحي، فيمتزج التوازن كما في قوله تعالى في سورة النور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: 35].

ومن ثم فإن كان القرآن معجزة البيان العربي، فإن الإعجاز هو إمكان لا ينضب على التأويل و إعمال العقل، فإن كان العقل العربي تقيد بالنص إلا أنه كان يرتد إليه، و ينظر فيه، و يتدبر أقاويله، و يتأمل معانيه، و يقلب دلالاته، فيجتهد ما أمكنه الاجتهاد، و يتأول له ما شاء أن يتأول، و بالتالي فإن اختلاف الاجتهاد، وتباين التأويلات يؤكد على تنوع الدلالة وثراء المعاني، أي على حيوية الثقافة الإسلامية وازدهارها، فالتأويل يفترض تعدد الدلالة، و ينشأ من الاختلاف بين الفوارق، وفي الواقع أن بدايات التأويل للوحي توافقت مع الاختلاف حول الأصول، وهي الاختلافات التي أسهمت في توليد المعاني، والتعامل مع النصوص، بوصفها مصدرًا للدلالة ومنبعًا للمعاني.[1] خاصة وأن النصوص لا يكون لها معنى دون تأويلها، فالنص بذاته صامت أبكم يحتاج إلى من يتحدث المؤول نيابة عنه، ويجب

(1) علي حرب: التأويل والحقيقة «قراءات تأويلية في الثقافة العربية»، دار التنوير، بيروت، 1985، ص ص12 - 14.

أن يتحدث بلغته ـ لغة الحاضر ـ وبالتالي يجب تأويل النص في ضوء الحاضر، فبدون مشاركة الحاضر يختص النص، فهذا يجعله مفتوحًا لفهم جديد، ولتأويل جديد، وبذلك يؤدي التأمل الهادي إلى انفتاح العقل على خارجه، فيوسع رؤيته ويسبر امكاناته من جديد، مستكشفًا بذلك نمطًا جديدًا من أنماط العقلانية، ولهذا يفضي التأويل للنص إلى التحرر من النظرة العتيقة إلى العقل وإلى المشروع الفلسفي.[1]

وعلى هذا يجب أن يضع التأويل المعاصر في تصوره أهمية العلاقة بين الماضي والحاضر؛ لأن أي دراسة عن الماضي يجب أن تنطلق من الحاضر مع أهمية الوعي التاريخي بالماضي، ولذا فالتجديد كما يقول «الشيخ أمين الخولي» هو الذي يهب العقائد القدرة على مسايرة الحياة، ويؤكد هنا قائلاً :» سنظل نرجى للنهوض بعبء هذا التجديد الديني الذي يخلص الحياة من ضائقتها الدينية اليوم، وحملات من لا يعرفون حقيقة الإسلام، وصلاحية الحياة واستجابة لأبعد ما تطمح من تقدم، وانطلاق ورقي، وتبدو الحاجة للتجديد قائمة لأن الزمن لا يعدم من الرجال، والحياة لا تزال خصبة، ولهذا يجب توظيف القديم حتى يكون أساسًا لحديث ينفع فيقول: «لقد ملك النفس شعور بالحاجة الماسة إلى تجديد تطوري يفهم به الإسلام الذي يقرر بنفسه البقاء والخلود فهمًا حيًا يتخلص من كل ما يعرض هذا البقاء للخطر، ويعوق خلوده»[2] ويوضح المفكر «أمين الخولي» عملية التجديد التطوري من خلال ما قدمه من مثل للقدماء، حينما ذكر أن الإمام الشافعي

(1) علي حرب: نقد النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1993، ص 92.

(2) أمين الخولي: المجددون في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991، ص 9، ص30.

له مذهبان فقهيان، مذهب قديم ومذهب جديد، فالقديم كان في بيئة مادية هي العراق، وفي سن مبكرة من حياته، والجديد كان في بيئة مادية مغايرة هي مصر، وفي سن متأخرة من حياته، واختلاف البيئتين ماديًا كان بلاشك مصحوبًا باختلاف البيئتين معنويًا وماديًا لاختلاف طراز الحياة في الإقليمين، وباختلاف أسبابها المادية من زراعة، وصناعة، ومقومات حضارية مختلفة ووراثة ذات لون معين، ونحو ذلك مما يكشفه التأمل الهادي في حالة كل من العراق ومصر.[1]

والتجديد يبدأ عند «الخولي» من فهم القديم واستيعابه ثم تجاوزه، ولهذا رفع «الخولي» شعار مضمونه «أول التجديد قتل القديم فهمًا واستيعابًا».[2] وحين نستوعب القديم استيعابًا جيدًا يمكن تجاوزه وتقديم اجتهاد حقيقي للكليات الإسلامية العامة، وذلك لأن الهدي القرآني إنما يمس من أمر الحياة الأصول الكبرى، والأسس العامة والقضايا العامة، والتي يتناولها القرآن الكريم في جملتها، لكي يحث العقل الإنساني على التدبر والتأمل الدقيق والتقدير الصحيح للمتجدد من شئون الحياة، ورعاية الفروق في ذلك بين الأزمنة، والمجتمعات، والبيئات، والثقافات، وما يرتبط بذلك.[3]

وهذا ما يوضح أن التجديد يرتكز على فهم القديم واستيعابه وتجاوزه ثم الانتقال بعد ذلك إلى فهم القضايا الكلية في الإسلام في ضوء ظروف كل مجتمع وثقافته وواقعه، ومن ثم يجب على المجددين في الإسلام تقديم قراءات

(1) المرجع السابق، ص 34.
(2) أمين الخولي: مناهج تجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص 229.
(3) أمين الخولي: في أمواهم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص 59.

لنصوص الإسلام توافق طبيعة المجتمعات والثقافات والبيئات المختلفة التي يعيشـون فيها. لذا فمن الأسس الميسرة للتجديد المتطور في الإسلام اقتصاره عـلى تنظيم الحياة العمليـة بالعبادات والشـعائر وغيرها مـن الأمور الكلية والقضايـا العامة الشـاملة، دون الانغماس في التفاصيـل المغرضة والجزئيات الصغرى والأمور الحياتية العامة.[1]

وتجديد الخطاب الديني بهذا المعني يتضمن الإشـارة إلى دائرة دلالية كلية ومتكاملة هي دائرة المعارف، والمقاصد المرتبطة بالدين، والقائمة على أركانه الأساسـية، والتي من خلالها يصوغ الإنسان اتجاهاته وتفسيراته، وتأويلاته وأفـكاره المرتبطة بالإيمان والعقيدة، والكـون والبشر والمجتمع وغيرها من السياقات المفاهيميه التي تصب في دائرة المعارف الدينية وترتبط بها.[2]

وبعد هذه الإطلالة على مضمون الخطاب الديني وتجديده يمكن الحديث عـن أزمة تجديـد الخطاب الديني وتطويره. وفي هذا السـياق يمكن الإشـارة إلى أن ملامح هذه الأزمة تسـير وفق عدة مسـتويات، ويمكن توضيحها على النحو التالي:

المسـتوى الأول: لأزمـة تجديد الخطـاب الديني تنطلق مـن أزمة تناقض الفكر التجديدي بين الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة. فالخطاب الديني

(1) أمين الخولي: المجددون في الإسلام، مرجع سابق، ص ص45-42 .

(2) أحلام السعدي فرهود: تجديد الخطاب الديني في مقررات التعليم في مصر، دراسة في مضمون مادة التربية الدينية الإسلامية، في كتاب تجديد الخطاب الديني في مصر، تحرير نادية مصطفى & إبراهيم البيومي غانم: المجلد الثاني، مركز البحوث والدراسات السياسية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006، ص 635.

في واقع الأمر يعاني عبر هذا المستوى من أزمة حقيقية تعبر عن نفسها بصور مختلفة، منها الاختلاف لحد الإضراب بين مختلف التيارات الإسلامية والمذاهب المختلفة، لدرجة تصل إلى حد العداء أحيانًا وكأنها مواجهة مع دين آخر، فعلى سبيل المثال الخلاف بين الشيعة والسنة، بل وصل الحد إلى التشهير والتسفية لأفكار الفرق والمذاهب الإسلامية المغايرة لأهل السنة، فمثلاً يقدم ابن حزم في آراء الفرق المغايرة لأهل السنة وهي الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، وتعتبر آرائهم مخالفة لدين الإسلام، وذلك لأن دين الإسلام تفسيره الصحيح فقط قاصرًا على تفسير أهل السنة، فيقول لقد كتبنا في ديواننا من فضائح الملل المخالفة لدين الإسلام الذين في كتبهم من اليهود والمجوس ما لا بقية لهم بعدها، ولا يمتري أحد وقف عليها، إنهم في ضلال وباطل ونكتب إن شاء الله على هذه الفرق الأربع من فواحش أقوالهم ما لا يخفي على أحد إنهم في ضلال وباطل ليكون ذلك زاجرًا لمن أراد الله توفيقه عن مضامينهم والتمادي فيهم.[1]

بل وصل الخلاف داخل دائرة أهل السنة حدًا لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال، فالجماعة السلفية خطأوا كل الفرق الأخرى وعدوها ضمن الفرق الضالة، فوصفوا الأشاعرة بأنهم مبتدعون في العقيدة، والصوفية منحرفون ضالون عن سواء السبيل، وأما المعتزلة والخوارج والشيعة فأقل وصف في شأنهم أنهم فسقة مارقون، إن لم يكونوا كفرة فجرة، كما أضافوا للخطاب الديني ما ليس فيه وجعلوها أصولاً في الخطاب المعاصر، مثل طاعة

(1) ابن حزم: الفصل في الأهواء والملل والنحل، تحقيق وتقديم، يوسف البقاعي، دار إحياء التراث، بيروت، ط2، 2002، الجزء الثالث، ص 96.

ولي الأمـر، وجواز الاسـتعانة بالكافـر وغيرها من القضايـا الأخرى. ففي الوقت الذي كان العـالم من حولنا يقفز قفزات نوعية في مجال التقدم التقني والمعـرفي، كنا غارقين في خلافات فرعية ومشـاكل سوفسـطائية غير مجدية حول قضايا شـكلية، ليست من أصول الدين ولا من مصلحة المسلمين، مثل الخلافـات حـول حكم حلق اللحيـة، ولبس اللباس الغربي، هـذا فضلاً عن التناحر المذهبي الضيق الذي لم ولن ينتهي.[1]

المسـتوى الثـاني: يتصل بأزمـة التجديد بـين الأصالة والمعـاصرة، حيث شـهدت الثقافة الإسلامية العربية صراعًا مريرًا مازال حتى الآن، بين ثلاث رؤى فكريـة متباينة لثـلاث فرق، الفريق الأول رأي أنـه لكي يتم التجديد والتطويـر فلابد من الانفتـاح على الحضارة الأوروبية الحديثة والسـير على خطاها، وترك التراث ونبذه لأنه يمثل عقبة كئود في سبيل تحقيق هذا الهدف، أمـا الفريـق الثاني فوقـف موقف الرفض مـن الحضارة الأوروبيـة الحديثة، ووجد أن الطريق الوحيد للتجديد وتحقيق التطوير المنشود للخطاب الديني إنمـا بالرجوع إلى أصول الدين الصافية و إلى التراث لاسـتلهامه، والعودة إلى ما كان عليه السـلف الصالح، في حـين ظهر موقف ثالث للوصول إلى صيغة توليفية مركبة تجمع بين أحسـن ما فيهما وترك مسالبهما، وبالتالي فإن أنصار كل فريق يفهم التجديد من رؤيته ومنظوره الخاص الذي يرتكز على خلفيته الفكرية والثقافية والأيديولوجية التي ينطلق منها[2].

(1) أحمد عرفات القاضي: تجديد الخطاب الديني، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2008، ص 21.

(2) محمد ياسر الخواجة: تجديد الخطاب الديني بين قيم التراث وفكر الإصلاح، في كتاب تجديد الخطاب الديني بين الفكر الفلسفي والاجتماعي، تحرير محمد ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.

المستوى الثالث: ويتعلق بأزمة الفكر داخل الخطاب الديني ذاته، حيث لوحظ في الآونة الأخيرة تعدد وتنوع الخطابات الدينية الفرعية داخل الخطاب الديني ذاته، فعلى سبيل المثال لا يوجد خطاب ديني إسلامي واحد فقط، فهناك الخطاب الرسمي الصادر عن المؤسسة الدينية الرسمية ممثلة في الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف، ولا يخفى لأحد مدى حاجة هذا الخطاب إلى التجديد والتطوير في مضمونه وموضوعاته وأدواته وبعده عن روح العصر، وهنا لا يمكن إنتاج خطاب إسلامي حديث، يوافق روح العصر بمعزل عن الإصلاح الشامل في جميع الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية ؛لأنها جميعًا تأخذ بعناق بعضها بعضًا، وليس من المبالغة بيان أن الأزمة أزمة خطاب عام وشامل في جميع المجالات، وهي أزمة تهدد الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ماضيها الذي حاول كثير من الكتاب اغتياله فوصف حضارتنا بالتخلف عن الغرب والحقد عليها، وحاضرها الذي يشهد حملة تستهدف السيطرة على مقدراتها ماديًا ومعنويًا، وتصفية العناصر الفاعلة فيه باغتيالها معنويًا عن طريق التيئيس تارة، وخلط الأوراق بين المفاهيم والمصطلحات تارة أخرى، مثل الخلط بين المقاومة والإرهاب، وتحديد مفهوم الإرهاب تحديدًا دقيقًا، من أجل تحويل الأمة إلى لقمة سائغة في يد الغير يفعل بها ما يشاء وكيفما شاء.

ومستقبلها الذي غفلنا عنه، وأدرنا له ظهورنا وتركنا غيرنا يوجهنا كيف يشاء ومتى أراد، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ولكن بلغ ذروته بمحاولة تشكيل العقل المسلم حسب النموذج الغربي الأمريكي بإعادة صياغة مناهج التعليم في المجتمعات الإسلامية فيما عرف بمبادرة «الشرق الأوسط الكبير» وهو أمر أقرته الدول الغربية دون مشاركة من العالم الإسلامي.[1]

(1) أحمد عرفات القاضي، مرجع سابق، ص 18.

كـما يوجد تنويعات من الخطاب الديني غير الرسـمي الصادر عن أفراد أو عن جهـات معينة، فمثلاً يوجد الخطاب السـلفي الذي يمثله حزب النور في مـصر، وجماعة الإخوان المسـلمين، وخطاب الدعاة الجـدد الذين يملئون شاشـات التليفزيون والقنوات الفضائية، والـذي يحمل الكثير من الأخطاء والمفاهيـم الخاطئـة والدعـوة دون الإعـداد التعليمي في الأزهـر الشريف، وغيرها من الخطابات الدينية الفرعية.

أما **المسـتوى الرابع** والمتعلـق بأزمة الفكر في ارتباطهـا بتجديد الخطاب الديني بما يسـمى بأزمة تكويـن العقلية النقديـة أي أن أزمة الخطاب الديني ترجـع إلى أزمـة الخطاب الفكري المعـاصر بكل فروعه، خاصـة في ظل ما تعانيه عملية إنتاج المعرفة في المجتمع من محنة في غياب المؤسسات التعليمية، وهي المؤسسـات المنوط بها إنتاج هذه المعرفة، حيث فشـلت في إنتاج العقل النقـدي ونجحت نجاحًا باهـرًا في إنتاج العقل التقليـدي الاتباعي، فوظيفة التعليـم بشـكل عام، والتعليـم الجامعي بشـكل خاص أن ينتج عقـلاً نقديًا يستطيع أن يرفض وأن يقبل على أساس سليم.[1]

وعـلى هذا يتضح أن أزمة الخطاب الديني تمثل إشـكالية حقيقية لا يمكن تجاهلها أو القفز عليها دون إدراك حقيقي لطبيعة هذه المسـتويات الأربعة للأزمة وتراكمها عبر مراحل طويلة، وقف العقل السـليم فيها عن التجديد، ومتابعة قضايا الواقع، ورغم الجهود المبذولة من قبل المفكرين منذ محمد بن عبد الوهاب لإيجاد مخرج لهذه الإشكالية لعلاج الخلل في مجال تجديد الخطاب

(1) السيد يسن: الخطاب الديني وتكوين العقلية النقدية، في تجديد الخطاب الديني لماذا وكيف، قضايا إسلامية، مرجع سابق، ص 43.

الديني بعيدًا عن سياق رد الفعل والشعور بالعجز في مواجهة الغرب، وعن ضرورة التعامل بجدية مع قضية التجديد أو الإصلاح الديني أكد المفكر العربي محمد جابر الأنصاري إنها ساعة التجديد الديني في الإسلام لدخول العصر الحديث، علينا أن نحدد المشكلة باسمها الحقيقي هو مطلب الإصلاح الديني في الإسلام، ولن يفلح المسلمون في إصلاح سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو فكري ما لم يباشروا الإصلاح الديني قبل كل شيء، والذي تأجل طويلاً، فالإسلام هو مرجعية حياتهم، وعليهم «مراجعة المرجعية» لتكون عونًا لهم في صراع البقاء التاريخي، فمن لا يدخل مرحلة الحداثة التي أصبحت عالمية ـ يحكم على نفسه بالانقراض المتدرج، ولن يفيد أي أمة صراخها وانفعالها شيئًا، فحركة العصر لا تتعامل مع الظاهرات الانفعالية والصراخية.[1]

ولذا فالإصلاح الديني والثقافي حاجة موضوعية لا جدال في ذلك، وبالتالي يتعين وضع مطلب إصلاح الدين وتجديده ضمن **منظور ثلاثي معمق وثري حول منطلقات الإصلاح أو التجديد على النحو التالي:**

المنظور الأول: العلاقة بالتراث الأصولي الموروث لتحديد ما هو الثابت فيها والمتغير، وهل لا تزال صالحة وملزمة بالنسبة للمسلم المعاصر؟

المنظور الثاني: العلاقة بعلوم التأويل الراهنة التي أفسحت المجال أمام أنماط جديدة من المناهج وأدوات التحليل، والنظر من شأنها توسيع آفاقنا الدلالية.

(1) محمد جابر الأنصاري: معركة تحديث العالم الإسلامي، إعادة قراءة مفاتيحها تفاديًا لتكرار الإخفاقات، جريدة الحياة اللندنية، 22/ 5/ 2005.

المنظـور الثالث: مقتضيات الكونية الجديدة المتولدة عن حركية الحداثة ذاتها، والتي وصلت مستوى تحققها الأعلى في دينامية العولمة الراهنة، باعتبار واجـب الأمة في تأديـة دورها في صياغة هذه الكونية، بـدل الانكفاء الذي يترجم عقدة التميز والإقصاء لا المشاركة الفاعلة المسئولة.[1]

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق كيف يستطيع الخطاب الديني الجديد أن يغير صورة الإسلام و يصححها لدى الغرب؟

في الواقع إن صورة الإسـلام لدى الغرب صورة مشوهة، جعلتهم يتهمون الإسـلام والمسلمون بالعنف والتطرف والإرهاب، و إثارة القلاقل والحروب ومعـاداة الحضـارة الغربية رمـز التقـدم والتنمية، ومعـاداة الأخـذ بالعلوم والتكنولوجيـا الحديثة، ومعاداة المنهجيـة العلمية في التفكير، وهذه الصورة المشـوهة هي الذريعة التي يتخذها القرار في الغرب لرسـم خرائط جديدة للعالم الإسلامي، خرائط جغرافية من خلال التخطيط لتقسيم بعض الدول كالعراق والسودان، وخرائط ثقافية وفكرية، مثل التدخل السافر في النظام التعليمـي والتربـوي من خـلال تغيير المناهـج وبعض النصـوص في التربية الدينية، كما يحدث الآن في باكسـتان وفلسطين، وخرائط سياسية لإحداث قلاقل للإطاحة ببعض الأنظمة مثل سوريا وأفغانستان والعراق وغيرها.

وهـذه الصورة المشـوهة هي التي جعلـت بعض الكتـاب الأمريكيين، مثل صمويل هينتجتون يرى أن البديل بعد سـقوط الشـيوعية هو الإسلام، وأنه يجب إعادة شـن حـروب صليبية جديدة ضد الإسـلام، في كتابه الذي

(1) عبد الله السيد: الخطاب الإصلاحي الجديد «الخلفيات الإستراتيجية والإشكالية النظرية»، مجلة التسامح، العدد (10)، عمان، ربيع 2005، ص ص46 - 47.

صدر عام 1996 تحت عنوان «صدام الحضارات و إعادة بناء النظام العالمي The clash of Civilizations and The Remarking of The World Order[1] والذي يؤكد على أن علاقة الإسلام بالغرب علاقة عدائية، أقرب إلى حالة شبه الحرب، والتي ساهمت في تشكيلها عوامل اختلال التوازن السكاني والتنمية الاقتصادية والتطور التكنولوجي، ودرجة الالتزام الديني، وزادها حدة في الفترة الأخيرة ازدياد ظاهرة الهجرة إلى الغرب، وانتعاش الصحوة الدينية، ورفض محاولات التغريب، وتواجه الطرفين نتيجة غياب المعسكر الاشتراكي، طبقًا لهذا يحذر هينتجتون من الحرب الباردة الحضارية بين الغرب والإسلام، والتي يراها ستحل محل الحرب الباردة التي كانت مستعرة بين المعسكرين الغربي والشرقي، بل إنه يرى أن هذا الصراع سوف يزداد عنفًا في المستقبل خاصة مع ظهور انبعاث إسلامي في أسيا الوسطى، ومع احتلال الإسلام للمرتبة العالمية الأولى في ثقله الديموجرافي مستقبلاً، متنبئًا بانتصار الإسلام في النهاية.[2]

وهذا يعني أن هينتجتون حدد دوره في إعادة إنتاج المركزية الغربية بمضمون جديد وأشكال أخرى و إشهار الصدام عل كل حضارة تختلف مع الحضارة الغربية رغبة في الهيمنة والتفرد في العالم أجمع .

ولقد لعب الإعلام الغربي دورًا بارزًا في تشكيل رؤية غربية فارقة للإسلام السياسي وبات الإسلام هو هاجس العصر ومصدر الخطر والتهديد القادم،

(1) وقد ترجم هذا الكتاب تحت عنوان صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، دار سطور.

(2) صمويل هنتجتوت: صدام الحضارات، مرجع سابق، ص 13، ص 87.

خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وبالتالي فإن تشويه صورة الإسلام في الصحافة الغربية قد ازدادت للخوف من انتشار الدين الإسلامي في الغرب وتغلغله في الثقافية الغربية.[1] فبدأت تظهر مصطلحات عرفت باسم ظاهرة الإسلام فوبيا، و إرهاب الإسلام، وأخيرًا الفاشية الإسلامية.

وهذا يتطلب معرفة واقع الخطاب الديني في المجتمعات الإسلامية في ظل الحداثة الغربية. وفي الواقع أن الخطاب الديني يتحصن بالتراث دون أن يخلق قطيعة مع الحداثة الغربية، ويحاول أن يخلق أشكالاً من التكيف والتحول، بحيث يدرك كل شيء، فالخطاب الديني يتعايش مع الحداثة، عندما يحاول أن يقدم أدلة شرعية على السياسات الحديثة للدولة، وعندما يحاول أن يجد للصيغ الحديثة جذورًا في الفكر الإسلامي فقد تصدى هذا الخطاب لموضوعات العدل، والحرية، والمساواة، والقومية والوطنية، والإنتاج والتوزيع، والاستثمار والادخار، أو عندما يحاول أن يضفي طابعًا إسلاميًا على العلوم المختلفة طبيعية كانت أم اجتماعية أو عندما يعيد إنتاج نفسه من خلال أدوات حداثية استهلاكية، دون أن يتقبل الأسس العقلية والفلسفية التي أنتجتها، وفي الوقت الذي يتعايش فيه هذا الخطاب مع الحداثة على هذا النحو فإنه يصارعها و يقاومها، و يظهر ذلك عندما يشن الخطاب الديني حملة على الحضارة الغربية التي هي مصدر الحداثة، وعلى الرغم من أن عمليات إنتاج الخطاب الديني والتراثي وتداوله واستهلاكه و إعادة إنتاجه هي جميعًا أدوات رأسمالية حديثة فإنه يتخذ موقفًا رافضًا للحداثة الغربية رغم التعايش معًا، ولا يبحث قط عن جذور التقدم في هذه الحضارة، الذي

(1) Volkmer, I.,: Journalism and Political Crises in The Global Network Society , Journalism after Spell, Macmillan Press, London, 2005,P.95.

هو العقل الذي يضرب بجذوره في الفكر الإسلامي.[1] خاصة وأن الإسلام كما يقول المفكر «أمين الخولي» دين البحث والعقل، وليس في معتقداته ما يُضرب عن ذلك، ولا من آياته حبس الفكر، ولا من فاهميه حق الفهم من توهم ذلك أو ظنه بلهاً، ولو نفضنا يدنا عن أثقال غيرنا، فلن يتهم الإسلام من لا يعرفه، ومن يهن فيه من لا يعرفه[2].

وهذا يتطلب في محاولة تجديد الخطاب الديني أن يحاول أن يظهر الإسلام كدين حضاري يحترم حقوق الإنسان وحريته، ويحترم العلم ويعده فريضة، كما يقر بحق الآخر في الحقوق والواجبات، ويؤمن بأن التنوع والاختلاف سنة كونية، والتجديد في الخطاب الإسلامي هو تجديد بالإسلام وليس تجديد في الإسلام، فالإسلام نفسه ليس بحاجة إلى تجديد، ولكن المحتاج إلى التجدد وإلى التجديد هم جانب من المسلمين وجانب كبير من فقهاء المسلمين. ولكي يؤتي التجديد أثره في الخطاب الديني **لابد من تحقيق الشروط التالية**:

1) ضرورة تغيير النمط التقليدي القائم على مخاطبة العواطف وإثارة المشاعر والاهتمام بمخاطبة العقل والتعامل مع قضايا ومشكلات الواقع بدلاً من سرد أفكار نظرية.

2) ضرورة تنوع أسلوب الدعوة وعدم الاقتصار على أسلوب الوعظ المباشر وتنوع أساليب الدعاة والموضوعات التي يتناولونها.

3) ضرورة توحيد صفوف الدعاة وحل الخلافات الفرعية التي تفتت

(1) أحمد زايد: الحداثة والتدخل الخطابي، في كتاب تناقضات الحداثة في مصر، مكتبة الأسرة، 2006، ص 109.

(2) أمين الخولي: الخير، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996، ص 100.

جهودهـم وتعوقهم عن أداء مهامهم بنجاح واقتدار، مثل الخلافات في توقيت الصيام والانقسامات حسب المذاهب والفرق الدينية.

4) ضرورة الإلمام الجيد بالأصول وعلوم الفقه الإسـلامي والإطلاع على علوم العصر والثقافة المعاصرة.

5) ضرورة الفهم الواعي بجوهر الدين وأهدافه السـامية باعتباره رسالة حضارية تحترم العقل، وتحض على العلم وتسعى إلى البناء والتعمير.

6) البعد عن الأسلوب الشائع في الدعوة القائم على الوعظ المباشر، الذي يركز بصفة أساسية على المناسـبات الدينية، ويسيطر عليه الأسلوب العاطفـي ويعتمـد عـلى القصـص والحكايـات.[1] والـذي كان هذا الخطـاب غالبًا يقوم على المقدمات الإيمانيـة التي تنحصر في حمد الله وشـكره والدعاء للنبي والصحابة وأولي الأمر، ثم الدفاع عن العقيدة - عـلى اختلاف مناهـج هذا الدفـاع - والأمر بإتباع قواعد السـلف الصالح.[2]

7) ضرورة أن يراعـي الخطـاب الديـني عنـاصر ثلاثـة مهمـة، اختيـار الموضوع المناسـب، في المكان المناسب، وفي الزمان المناسب، على أن يراعى المسـتويات العمرية والثقافية والاجتماعية لجمهور المتلقين. كما أن هناك ثوابت في الخطاب الإسـلامي تتصل بالعقيدة والأخلاق والثوابـت التشريعيـة، وهنـاك أمـور عاجلـة تقتضيها مسـتجدات

(1) أحمد عرفات القاضي: تجديد الخطاب الديني، مرجع سابق، ص 209.
(2) حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة «المقدمات النظرية»، المجلد الأول، مكتبة مدلولي، القاهرة، 1988، ص 5 وما بعدها.

أو أحداث معينة تتطلب بيان موقف الإسلام منها، وهنا لا يجب أن يتأخر البيان.

8) يجب مراعاة طبيعة الموقف في تحديد مضمون الخطاب الإسلامي، فهناك أمور ثابتة في الكتاب والسنة، وهي حق لا مراء فيه، لكن الحكمة تقتضي عدم ذكرها أو الاقتراب منها تجنبًا لفتنة أو لحدوث مساوىء أو مفاسد، والمبدأ الإسلامي أن درأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

9) يجب أن يتسم الخطاب الإسلامي بالوضوح واليسر والجاذبية للجمهور المستهدف، وهذا يتطلب أن يبتعد تمامًا عن التجريح أو استفزاز المتلقين للرسالة، أو الإساءة إلى الآخرين، فقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].

أي أن أسلوب الدعوة يجب ألا يثير عند جمهور المتلقين المعاندة أو الخصومة أو الرفض، كما يجب العمل بالحكمة على تقليل مقاومتهم لمضمون الدعوة بقدر الإمكان، والهدف من هذا التمكن هو توصيل الحقائق إلى الجمهور المستهدف بالدعوة، وتركهم يتدبرون الأمر لعلهم يهتدون.[1]

والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة هنا هل يختلف الخطاب الإسلامي داخل المجتمعات الإسلامية عنه في المجتمعات الغربية، وكيف يمكن تحقيق خطاب جديد يلاءم طبيعة هذه المجتمعات؟

(1) نبيل السمالوطي: المنهجية العلمية في تصحيح صورة الإسلام في الغرب «رؤية نقدية للخطاب الديني»، في كتاب تجديد الخطاب الديني، مرجع سابق، ص ص35 - 36.

في الواقع إن طبيعة الخطاب في المجتمعات غير الإسلامية يجب أن يبعد كثيرًا عن لغة الخطاب في المجتمعات الإسلامية ذاتها، من حيث الابتعاد عن التشدد أو التعصب في عرض حقائق الإسلام في سماحتها ووسطيتها واستهدافها لصالح الإنسان، كما يجب إبراز قبول الإسلام لكل الديانات السابقة، وجعل الإيمان بكل الأنبياء والكتب السماوية السابقة، شرطًا لصحة الإيمان الإسلامي، و إبراز القيم العليا للإسلام في العدل والتسامح مع الجميع، وتحريم الاعتداء وتجريم الإرهاب والتطرف وترويع الآمنين والعنف بكل أشكاله، و إقبال الإسلام على كل الحضارات على العكس من أغلب الحضارات والديانات الأخرى.

كما يجب مراعاة ثقافة المجتمعات غير الإسلامية، ونمط تفكير أبنائها والأساليب الناجحة للإقناع داخلها، وقدرتها على الاستيعاب وتأكيد حرية الإنسان في اختيار العقيدة، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: 256]. أما عن كيفية تغيير الصورة المشوهة عن الإسلام وتحقيق خطاب جديد يلائم طبيعة هذه المجتمعات، فيمكن أن يحدث عبر مجموعة من الآليات والوسائل، هي:

1. عن طريق أسلوب الحوار المقنع بالحسنى: حيث أكد الإسلام على ضرورة محاورة المخالفين، وخصوصًا من أهل الكتاب بالحسنى، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 46]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ

﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64] وهذه الرؤية ـ كما يرى «عابد الجابري» ـ تعكس أن السجال مع أهل الديانات من أرباب الحضارات الأخرى كان يدور في الأمور التي تختلف فيها العقائد، وكيف أن الرأي المخالف كان يدحض بالحجج العقلية، و يستحيل أن يجد الباحث في المجادلين المسلمين من يطعن في خصمه حسب اللون أو العرق، بل كان يعامل أهل الكتاب بوصفهم أصحاب رأي مخالف لا كخصوم أو أعداء.[1]

2. ضرورة الوصول إلى عقل رجل الشارع في المجتمعات الغربية ومخاطبته فكريًا وترجمة حقائق الإسلام الصحيح وطرحها من خلال وسائل الإعلام والقنوات الفضائية الموجه للغرب بالاستعانة بالمسلمين في الغرب، والاستعانة بالمفكرين المنصفين في الغرب، وهنا يجب الاستعانة بخبراء الاتصال والتواصل مع العقل الغربي، للتأثير على كل آليات تشكيل القرار، ولا تقتصر فقط على مصادر صنع القرار، لأن المواطن الغربي هو الذي يشكل القرارات عبر صناديق الانتخابات. ومن خلال آليات متعددة كجماعات الضغط، والكتابة الصحفية، والأحزاب المعارضة، وجماعات المصالح، والهيئات والمنظمات غير الحكومية... إلخ.

3. يجب التنسيق بين المشتغلين بالخطاب الإسلامي الموجه للدول غير الإسلامية، وأقصد هنا التنسيق بين الدول الإسلامية لرسم استراتيجية

(1) محمد عابد الجابري: مسألة اليهودية «العروبة والإسلام والغرب»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995، ص ص193 - 194.

إعلامية متفق عليها بين كل الدول الإسلامية، حتى لا يتناقض الخطاب الإسلامي الموجه للدول الأجنبية بين دولة إسلامية وأخرى، وهنا يجب تجاوز الخلافات الفقهية بين الشيعة والسنة، أو بين المذاهب والفرق الإسلامية حتى يكون الخطاب أكثر فاعلية في عرض حقائق الإسلام بعيدًا عن الخلافات السياسية والمذهبية والثقافية بين الدول الإسلامية.

4. يرتبط بذلك ضرورة أن تتضمن خطة الخطاب الديني الوقوف على مختلف الجوانب التي يركز عليها الخطاب الصهيوني أو ما يكتبه المستشرقون على إثارة شبهات حول الدين الإسلامي، ودحض هذه الشبهات بشكل غير مباشر، وبأسلوب سهل مبسط وبأسانيد شرعية عقلية، ومن خلال استراتيجية علمية لا نبخل عليها بالأموال والامكانات.

5. كما أن تغير صورة العالم الإسلامي يقتضي منطقيًا أن نغير صورة المسلمين، ولن تتغير صورة المسلمين إلا بتغيير واقعهم الذي يتسم بالتخلف في الكثير من المجالات، وهذا يقتضي ببساطة شديدة أن نطبق تعاليم الإسلام الصحيح بقيمه ونظمه وسلوكياته في الواقع الاجتماعي المعاش للشعوب، وهذا يقتضي تطبيق ما نحاول نشره وإفهامه للآخرين بصدد جوهر الإسلام، هذا الجوهر الذي يعلي من قيمة العقلانية، وقيمة الإنسان وحقوقه، وقيم العلم والتخطيط واحترام الوقت والأخذ بالنظرة المستقبلية، وبناء كل مقومات القوة الشاملة ابتداءً من القوة الثقافية والعلمية والفكرية، حتى القوة الاقتصادية

والعسكرية، مرورًا بالقوة السياسية، متمثلة في حرية الرأي، والرأي الآخر، وتطبيق أدب الحوار والاختلاف داخل مجتمعاتنا الإسلامية، وذلك من خلال إعلاء قيمة التسامح في الدين الإسلامي، والتي تقوم على الاحترام والقبول والتقدير لمختلف الثقافات في العالم، ولأشكال التعبير المختلفة الخاصة بكل منها، وللأساليب المختلفة في الحياة، فالتسامح يعني التجانس مع الاختلاف، ويزداد مع المعرفة، وانفتاح العقل، والانفتاح على العالم، وزيادة الاتصالات، والتفاعلات مع ثقافات أخرى، إلى جانب حرية التفكير والمعتقدات والممارسات.

6. يجب على الدول الإسلامية دعم وتشجيع المسلمين في الغرب، سواء كانوا من أصول عربية أو غربية، بأن يشكّلوا لوبي إسلامي، حتى يلعبوا دورًا مهمًا في التأثير على الرأي العام الأمريكي، وصناع السياسات والقرارات، فضلاً عن ربط الأقليات الإسلامية في المجتمع الغربي، وربطهم بالعالم الإسلامي، وتنسيق السياسات معهم، وإمدادهم بالمعلومات والبيانات، لأنهم الأقدر على مخاطبة مجتمعاتهم، لمتملكهم آليات التواصل مع أبناء هذه المجتمعات، وفهم طبيعة العقلية والشخصية المستهدفة من الخطاب الإعلامي والثقافي.

7. تفعيل دور الأجهزة والمؤسسات الإسلامية والعربية، مثل أجهزة جامعة الدول العربية، ورابطة العالم الإسلامي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والندوة العالمية لشباب العالم الإسلامي، ورابطة الجامعات الإسلامية. كل هذا من أجل التنسيق بينها، ورسم سياسات للإعلام والنشر باللغات الأجنبية، وتصميم برامج للصحافة والتليفزيونات

الغربية، تكون قادرة على نشر حقائق الإسلام في سماحته واعتداله، واستبعاد ما لا يتفق مع كل القيم الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية الصحيحة. وما لا يتفق مع أبسط المبادئ الإنسانية.

8. كما أن المواجهة العلمية والمتكاملة لصورة الإسلام والمسلمين المشوهة في الغرب تتطلب سياسة إعلامية وثقافية وفكرية موحدة، تتكامل خلال كل المؤسسات الحكومية وغير الحكومية العاملة في المجال الثقافي والتربوي والإعلامي في عالمنا العربي، ويجب أن توظف وتنفذ هذه الخطة بكل الإمكانات المادية والبشرية للدول الإسلامية مجتمعة، حتى تكون قادرة على رد الحملة الشرسة التي تقودها الصهيونية العالمية ضد الدين الإسلامي.[1]

(1) انظر كل من:
- نبيل السمالوطي: المنهجية العلمية في تصحيح صورة الإسلام في الغرب، مرجع سابق، ص ص29 - 32.
- أحمد عرفات القاضي: تجديد الخطاب الديني، مرجع سابق، ص ص73 - 74.
- أشرف عبد الوهاب: التسامح الاجتماعي بين التراث والتغير، مكتبة الأسرة، 2006، ص 77.